

الدرس السادس والعشرون :

قيام ليلة قدر

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ، و « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(١) ، « وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(٢) .

من خصائص شهر رمضان :

مما اختصَّ الله به هذا الشهر الكريم ، الذي افترض فيه الصيام ، وسنَّ فيه القيام ، وجعله موسماً لتجارة الصالحين ، موسماً للمغفرة وتكفير السيئات ، ومُغتسلاً لتطهير القلوب من الأدران والغفلات ، مما اختصَّ الله به هذا الشهر أن جعل فيه ليلة القدر . . .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۚ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ سَنَةٍ ﴾ (القدر : ١-٣) ، والقدر هو : الشرف ورفعة المقام ، فهي ليلة ذات قدر ، أنزل فيها كتاب ذو قدر ، على نبي ذي قدر ، لأمة ذات قدر .
ليلة القدر هي : الليلة التي أنزل الله فيها خير كتاب أنزل ، على خير نبي أرسل ، إلى خير أمة أخرجت للناس .

ليلة القدر إذن هي ليلة القرآن ، ليلة هذا الدستور السماوي العظيم ، ليلة أنزل فيها هذا القرآن ، فضلها الله على سائر الليالي ، بل جعلها خيراً من ألف شهر .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الإيمان (٢٠٠٩) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٥٩) ، كما رواه أحمد (٧٧٨٧) ، وأبو داود في الصلاة (١٣٧١) ، والترمذي في الصوم (٨٠٨) ، والنسائي في قيام الليل (١٦٠٢) ، عن أبي هريرة .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في كتاب الصوم (١٩٠١) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٦٠) ، كما رواه أحمد (٩٢٨٨ ، ٩٢٨٩) ، وأبو داود في الصلاة (١٣٧٢) ، والترمذي في الصوم (٦٨٣) ، والنسائي في الصيام (٢٢٠٦) ، عن أبي هريرة .

العمل الصالح فيها ، الطاعة والعبادة والقيام ، خير من العمل والطاعة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وهي تساوي - كما سبق أن بينا في الدرس العشرين من دروس رمضان - ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر . . . إنها عمر طويل .

ليلة خير من عمر طويل :

كم يتمنى الإنسان منا أن يُعَمَّرَ ، وأن يمدَّ له في الأجل حتى يعيش ألف شهر يعمل فيها صالحاً . . . يعيش بعد الصبا ثلاثاً وثمانين سنة . . . فإذا أضيفت إليها سنوات الصبا قبل التكليف كانت قرابه مائة سنة . . . وهذا عمر طويل . ولكن هذا العمر الذي يتمناه الإنسان ويودُّ لو يعيشه ، ويدعو الله أن يتحبه له ، وأن يعمره بالخير والعمل الصالح ، مثل هذا العمر المتمنى . . . آتاه الله لأتباع محمد ﷺ في ليلة واحدة . . . طوي هذا العمر الطويل في تلك الليلة . . . ليلة القدر .

وأي قدر أعظم أن يكون العمل في هذه الليلة خيراً من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ؟!

روي أن النبي ﷺ أرى أعمار الأمم قبل الأمة الإسلامية ، فرأى أعمارهم تطول ، ورأى هذه الأمة يعيش أبنائها ما بين الستين والسبعين والثمانين ، فعزَّ عليه تقاصر أعمار أمته ، ألاَّ يبلغوا من العمل والصالحات ما بلغت الأمم الخالية^(١) . . . فأعطاه الله هذه الليلة ، تكملة لرسوله ، وتكرمة لهذه الأمة .

أعطاهم ليلة هي خيرٌ من عمر طويل . . . وتكرَّرَ هذه الليلة كل عام في رمضان المبارك ، رأيتم مثل هذه المضاعفة؟! إنها ليست مضاعفة مائة في المائة ، ولا مائتين في المائة ، ولا ألفا في المائة . . . بل ليلة واحدة خير من ثلاثين ألف ليلة مما سواها من الليالي . إنها ثلاثة ملايين في المائة (٣٠٠٠٠٠٠٪) .

(١) عن مجاهد ، أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، قال : فعجب المسلمون من ذلك . قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (القدر : ١-٣) ، التي لبس فيها ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر . رواه البيهقي في الكبرى كتاب الصيام (٣٠٦/٤) ، وهذا مرسل .

نزول الملائكة في هذه الليلة :

إن الله ينزل في هذه الليلة الرحمة والثواب الجزيل ، وينزل فيها الملائكة ، فتملاً فجاج الأرض . . . والملائكة مظهر الرحمة ، ومظهر الرضوان ، ومظهر البركة من الله عز وجل ، فنزول الملائكة هو تنزل للرضا والرحمات ، وللخيرات .

ولهذا كان البيت المحروم من الخير ، هو البيت الذي لا تدخله الملائكة ، كالبيت الذي فيه كلب لغير حاجة ، وكالبيت الذي فيه تماثيل^(١).

سلام هي حتى مطلع الفجر :

هي ليلة سلام . . . كلها سلام من أولها حتى يشرق فجرها : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (القدر: ٥).

هذه هي ليلة القدر ، التي اختص الله بها هذه الأمة ، وفضلها بها على غيرها من الأمم ، ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (البقرة: ١٠٥). يُفَضِّلُ الله من الأيام ما شاء ، ومن الليالي ما شاء ، ومن الأماكن ما شاء ، ومن الأشخاص ما شاء ، فإن التفضيل والإيثار والاختيار والاختصاص من شأن الرب وحده ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ (القصص: ٦٨)، اختار الله هذه الليلة . . . ولكن لحكمة بالغة لم يعينها الله لنا .

أي ليلة هي ؟

عين القرآن لنا أنها في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، ولكن أي ليلة هي من رمضان ؟

لقد قال قوم : إنها أول ليلة من رمضان .

(١) قال رسول الله ﷺ : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة تماثيل » ، متفق عليه : رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٢٥) ، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٠٦) ، كما رواه أحمد (١٦٣٤٦) ، والترمذي في الأدب (٢٨٠٤) ، والنسائي في الزينة (٥٣٤٧) ، وابن ماجه في اللباس (٣٦٤٩) ، عن أبي طلحة .

ذهب الحسن البصري وبعض الفقهاء والأئمة إلى أنها ليلة السابع عشر من رمضان . . . ليلة غزوة بدر ، التي أنزل الله فيها الملائكة : ﴿ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَلْجَمَعَانِ ﴾ (الأنفال: ٤١) ، قالوا : لأنها الليلة التي ابتداء فيها نزول القرآن على النبي ﷺ ، وابتداء فيها الوحي ، وكان ذلك - كما جاء من الروايات - في ليلة السابع عشر من رمضان .

وذهب بعض الصحابة إلى أنها ليلة إحدى وعشرين ، ذهب إلى ذلك أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، فإن النبي ﷺ ، قال لهم : « أرايتم ليلة القدر؟ ثم تلاحي فلان وفلان في المسجد فرفعت ». أي : إن اثنين من الصحابة تلاحيا وتشاجرا ، فكان من شؤم هذا الخصام ووقوع الخلاف ، أن رفع الله علمها من قلبه ، ولم تُعَيَّنْ لهم بعد أن كانت معروفة . . . وأراد أن يخبرهم بها . . . فقال عليه الصلاة والسلام حينما أنسيها : « لعل ذلك خير لكم » . ثم قال له : « إني أريتُ كأني أسجد ليلتها في ماء وطين » . قال أبو سعيد الخدري ، وقد سمع ذلك من النبي ﷺ : إن السماء كانت صافية ، فما هي إلا أن ظهرت قزعة ، ومُطرنا ، فما كان إلا أن النبي ﷺ في صبيحة هذه الليلة ، ليلة الواحد والعشرين من رمضان ، سجد فرأى على جبهته الماء والطين^(١) .

ولهذا رجَّح أبو سعيد وظنَّ أنها في هذه الليلة ، أي أول ليلة من ليالي العشر الأواخر من رمضان . وفي سلطنة عمان ، يحتفلون بليلة القدر ليلة الحادي والعشرين .

وذهب بعض السلف إلى أنها تنتقل من عام إلى عام ، ولا تثبت في ليلة واحدة أبد الدهر .

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٢٠١٦) ، ومسلم (١١٦٧) ، كلاهما في فضل ليلة القدر ، كما رواه أحمد (١١٠٣٤) ، وأبو داود في الصلاة (٨٩٤) ، والنسائي في السهو (١٣٥٦) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٦٦) ، عن أبي سعيد الخدري .

وذهب بعض الصحابة والتابعين إلى أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان ، وقد ذهب إلى ذلك أبي بن كعب ، وكان يحلف على ما يقول ، كما ذهب إليه عبد الله بن عباس^(١).

سبب خفائها :

والمهم أنها لم تتعین ، وكأنَّ الله تعالى أخفى ذلك لحكمة . . . كما أخفى عنا الساعة التي يُجيب فيها الدعاء يوم الجمعة ، والتي لا يُصادفها مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له^(٢) . . . ولم تُعین هذه الساعة ، ليظلَّ قلب الإنسان مُعلِّقاً بالله ، ضارعاً ، داعياً طوال اليوم .

وكذلك لم يُعین الله ليلة القدر لأنَّ الإنسان ينزع إلى الكسل ويميل إلى الراحة ، فلو عرف ليلة القدر وأيقن أي ليلة هي لكسل معظم الشهر وغفل ، حتى إذا كانت هذه الليلة اجتهد وشمَّر عن ساعديه ، وكشف عن ساقيه ، وقام الليل ودعا ، وعبد وتضرع . لكيلا يكون ذلك أخفى الله وغَيَّب عنا بحكمته علم هذه الليلة وتعيينها . ولكن الظنَّ القوي أنها في العشر الأواخر من رمضان .

فقد أمرنا النبي ﷺ بالتماسها في العشر الأواخر ، وفي الأوتار خاصة ، وهي الليالي الفردية . . . ولا يُطلب منا التماسها في العشر الأواخر ، إلا إذا كان الراجح أن تكون في هذه الليالي . . .

كيف نقيم ليلة القدر؟

وإذا كان بعض البلاد يصوم متأخراً عن بعض ، فمعنى هذا أنَّ كل ليلة تصلح لأن تكون فردية وأن تكون زوجية، ومن هنا على الإنسان المسلم الراغب في الخير:

(١) راجع هذه الأقوال في كتابنا : (فقه الصيام) ص ١١٥ وما بعدها ، طبعة مكتبة وهبة ، القاهرة ، وفتح الباري (٢٥٦/٤) وما بعدها .

(٢) قال رسول الله ﷺ : « في الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم قائم يصلي يسأل الله خيراً إلا أعطاه » ، وقال بيده ووضع أناملته على بطن الوسطى والخنصر قلنا يزهدها . متفق عليه : رواه البخاري في الطلاق (٥٢٩٤) ، ومسلم في الجمعة (٨٥٢) ، كما رواه أحمد (٧١٥١) ، والنسائي في الجمعة (١٤٣١) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١١٣٧) ، عن أبي هريرة .

أن يلتبسها في سائر الليالي العشر الأواخر . . . ولا يكسل في ليلة من الليالي . . . عليه أن يقوم ويحسن القيام . . . قيام الخشوع ، وقيام الاطمئنان ، لا نقر الغراب ولا نقر الديكة ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴿

(المؤمنون: ٢٠١).

عليه أن يتلو القرآن ، فإن للمسلم في كل حرف يتلوه عشر حسنات ، كما جاء في الحديث : « لا أقول : ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »^(١).

عليه أن يدعو ويتضرع ، فإن « الدعاء مُخ العبادَة »^(٢) ... بل « الدعاء هو العبادة »^(٣).

وقد سألت النبي ﷺ ، السيدة عائشة : أرأيت إن علمتُ أي ليلة ليلة القدر ، ما أقول فيها؟ فقال : « قل : اللهم إني أعوذُ بك عفوُ تُحبُّ العفو فاعفُ عني »^(٤). والأدعية كثيرة في القرآن وفي السنة .

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (البقرة: ٢٠١)، « اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة »^(٥) . . . إلى غير ذلك مما ورد من أدعية كثيرة في القرآن ، وفي أحاديث النبي ﷺ ، وخير الدعاء المأثور ، فإن فيه أجرين : أجر الدعاء ، وأجر اتِّباع السنة ، واتِّباع هدي الرسول ﷺ .

(١) سبق تخريجه ص ١٣٩ .

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٣٧١)، وقال : حديث غريب من هذا الوجه ، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ، والطبراني في الأوسط (٣١٩٦) ، عن أنس .

(٣) رواه أحمد (١٨٣٥٢)، وقال مخرَّجوه : إسناده صحيح ، وأبو داود في الصلاة (١٤٧٩)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٦٩)، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨) ، عن النعمان بن بشير .

(٤) سبق تخريجه ص ١٧١ .

(٥) سبق تخريجه ص ١٧١ .

النبيُّ في العشر الأواخر :

وكان النبيُّ ﷺ إذا حضر العشر الأواخر : شدَّ مئزره ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله^(١).

أحيا ليله كله بالطاعة والعبادة والقيام والقراءة والدعاء . وأيقظ أهله ، وأهاب بنسائه ليأخذنَّ حظَّهنَّ من العبادة ومن الطاعة . وكان يعتكف في هذه العشر ، في المسجد ، ليظلَّ ليله ونهاره لله عز وجل ، مُستغفرًا في العبادة ، متلذِّذًا بمناجاة ربه ، فإن للعبادة عند العارفين رُوحًا وروحًا وريحانًا وقرة عين ، كما قال ﷺ : « وجُعِلَت قرة عيني في الصلاة »^(٢) ، وكما قال في الصيام : « إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني »^(٣).

إنَّ ليلة القدر مُنتشرة في رمضان ، وهي أرجى ما تكون في العشر الأواخر ، فاحرصوا عليها والتمسوها واطلبوها .

أيها المسلمون : لنلتمس ليلة القدر ، ولنجتهد في العبادة أكثر ممَّا كنا عليه ، ولنحرص على الخير وعلى طاعة الله أكثر ممَّا كنا نحرص ، ولنُحسن قيامنا وركوعنا وسجودنا أكثر ممَّا كنا نُحسن ، ولنُتضرَّع إلى الله بقلوبنا ، ولنُقبل عليه بكلِّيتنا ، واقفين على بابه ، مُتذلِّلين على أعتابه ، مُتضرِّعين إليه ، باسطين أكفنا إليه بالسؤال ، داعين خاشعين : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣)^(٤).

* * *

(١) سبق تخريجه ص ١٧١ .

(٢) رواه أحمد (١٢٢٩٣) ، وقال محققوه : إسناده حسن ، والنسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩) ، وأبو يعلى (٣٤٨٢) ، والطبراني في الصغير (٧٤١) ، وفي الأوسط (٥٠٢٣) ، والحاكم في النكاح (١٦٠/٢) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الكبرى كتاب النكاح (٧٨/٧) ، وقال العراقي في تخريج الإحياء : رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد وضعفه العقيلي (٣٢/٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الصوم (١٩٦٤) ومسلم في الصيام (١١٠٥) ، كما رواه أحمد (٢٦٢١١) ، عائشة .

(٤) راجع ما ذكرناه في كتابنا : (فقه الصيام) ص ١٢٩-١٣٤ .